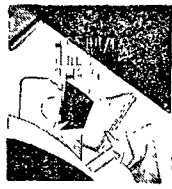

النتاج الجديد

« شرر »

ديوان شعر
لأحمد الصافي النجفي
منشورات مطبعة صادر وريحاني
بيروت — ٢٢٠ ص

الى الشعر يأتي كل الف مجدد فبعد نبي الشعر احمدَ احمدُ
حماني من التقليد ما عشت انني اذا رمت أمراً لم أجد من أقلد
أسير كما توحي إليّ سريرتي فان شئتم ان تهتدوا فبي اقتدوا

واذا لم نشأ يا شيخ أحمد فماذا يغشى بصائرنا ؟ أنظل تائهين ؟ ان الله وحده هو الهادي — يهدي لنوره من يشاء — وما أنت الا شاعر .. والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون ؟ بلى وربي رأيت ، وهذا واحد منهم صدعني وهو يقول شعري .. شعري .. انا الشاعر المجدد .. انا أبتكر ولا أقلد ..

كل شعري نادر مبتكر شعر غيري مثل غيري هذر

فيا ليت شعري أين هو هذا الابتكار ؟ وهذا التجديد الذي يبهر الأبصار ؟ أهو في مثل قول الصافي :

يا دارُ كم فيك أسرار وأخبار ما كان أجملها لو تنطق الدار

أم في مثل هذا القول :

قد حل في قلبي حبيبان ولاح في أفقي « بدران »
لم أدر من ذا أصطفي منهما وواحد أحلى من الثاني

أهذا هو التجديد النادر المبتكر ؟ وكل ما عداه من شعر الشعراء تفاهة وتقليد وهذر في هذر ؟ تهجّم ومغالاة كنت أرجو لصديقي الصافي أن يسلم شعره منهما ، لا سيما ونحن في عصر بعيد جداً عن عصر الفخر والهجاء وأمثال هذه الادعاءات .

ثم ألم يكن الأفضل للصافي أن يترك التقدير للنقاد فيحكموا هم على شعره فيما اذا كان شعراً طريفاً نادراً أو غير نادر ؟ « أشطبْ على النقاد إلا القليل » .. احمد الصافي لا يؤمن بالنقد « فالنقاد هم الطغام واللئام » ، أحمد الصافي لا يؤمن إلا باحمد الصافي :

ما ارتضاني غير أهل الفطن وهمُ قلة هذا الزمن
« أنا » في العالم مقياس الذكا « أفهم » العالمِ من يفهمني

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ان حساب الكافرين عسير .. هذا هو رأي الصافي بنفسه ، فليسمع إذن رأي الناس فيه .

أحمد الصافي شاعر لبيب ، وظريف نابه ، يتمتع بشهرة أدبية فائقة وله أتباع ومريدون ، وشعره يعجب فريقاً من الناس .. ولكن هل الصافي شاعر حقاً ؟ هل هو شاعرٌ شاعرٌ — حسب مفهومنا الحديث للشعر — أم أنه كغيره من الشعراء « المشهورين » اكتسب اسماً اكبر منه ، ولبس جبة فضفاضة عليه ؟

سؤال ينبغي أن يطرح ويثار ، من أجل رفع الغشاوة عن عيون التائهين المخدوعين ، نرمي من ورائه الى إعادة النظر في كل « قيمنا » الأدبية ، ومراجعة ما أعطاه « أقطاب » شعرائنا — جميع الشعراء لا الصافي وحده — « لنرى ماذا عمل من يكبرنا سناً ، وماذا بقي علينا أن نعمل ، لنسير على بينة كما ساروا » مغربلين مطهرين ، لا نختشي في الحق لومة لائم ، رائدنا خدمة لغتنا وازدهار آدابنا . الكبير عندنا من يكبرنا أدبه . والعظيم من نعظمه نحن لا من يعظم نفسه .. أما الذين اكتسبوا الرتب والألقاب بالتطبيل والتزمير ، والفخر والادعاء وقول الزور فهؤلاء سوف يشملهم قانون من أين لك هذا .

هل الصافي شاعر حقاً ؟ هذا هو السؤال . يجيب عليه البعض بقولهم ان الصافي ليس شاعراً ؛ ولكنه يحاول ان يصير كذلك وما صار قط .

ويجيب البعض الآخر بان الصافي شاعر ، ولكنه شاعر على طريقته .. شاعر فيلسوف مجدد .. اخترع جملة أغراض وولّد ثروة معان .

وفريق ثالث لا يحرم الصافي من الشاعرية ، بل يجود عليه بها ؛ ولكنه لا يجعله من طبقة الفلاسفة ، وأهل الفن والتوليد ، بل يعتقد انه من شعراء الدرجة الرابعة ، من تلامذة الزهاوي ، ومحتذي جبران وأبي ماضي ، وأحد رفاق الرصافي ، ومن أبرع مترجمي عمر الخيام . .

هذا واني وإن كنت أشد ميلاً الى رأي الفريق الثالث .. لأمسك عن تأييد هذا الميل قبل أن أرجع إلى عقلي أو أسأل نفسي هذا السؤال — السؤال النقدي الموضوعي الذي يشترطه عليّ بعض جهابذة النقد : ما هو الشعر ؟ هل الشعر هو الكلام الموزون المقفى ، أم أنه شيء يختلج به الصدر فينطق به اللسان ، ينفثه الشعراء وأكبادهم تحترق ، للنغم والخيال والعاطفة فيه الحظ الأوفر ؟ فاذا كان الشعر الكلام الموزون المقفى فقط ، فالصافي وحليم دموس شاعران بل سيدان من سادات الشعر . أما إذا كان الشعر خيالاً وألواناً ونغماً مهموساً ونفثة عواطف وحرقة أكباد فيا حسرة أخينا أحمد على نفحة من نفحات الشاعرية !

الصافي مسجل خواطر ، وعجّان كلام . ينظم أخبار الصحف ، ويغذي عقله بافتتاحياتها .

أتصبح هاتيك الحقائق أوهاماً وتحكمناصهيون عرباً وإسلاما
إلهي إن نعجز فلست بعاجز ففيم إذن أسكنت بيتك هداما

لا فن عنده ولا خيالات بل مقطوعات ساذجة غثة ، رديئة ، وقصائد سقيمة مهترئة ، تعوزها الحياة والحركة ، وتشلّها الرخاوة وفقر الدم . قال الصافي من قصيدة يصف جمال الطبيعة ويدعو إلى التملّي من هذا الجمال :

النهر يخطب بالخرير فأنصتوا وإذا تكلمت الطبيعة فاصمتوا
الريح تعزف والبلابل غردت والسحر رضج وأنتم لم تسكتوا
هذي الطبيعة منكم «مغتاظة» فعليكم «تدعو» وفيكم تشمت
«شوّشتم» لحن الوجود ببلغوكم وأماتنا منكم كلام ميت
أبهرجان الكون لغو فارغ ماذا يقال بوصفكم إن تنعتوا

فهل لعمري قال الصافي شعراً في ما قال أم أنه حكى حكياً وروى أخباراً وعمد إلى الكلام العادي المألوف فنظم ما بينه وأرسله أبياتاً موزونة وأشعاراً مقفاة ؟

لا أطمح إلى تجريح الرجل أو إشعال النار ما بيني وبينه ، إنما أنا قاريء أدب وشاري دواوين أنقب عن شاعر يغني آلامي ويهتف بأشواقي وينظم حنيني وخوالج إحساسي . شاعر أحس في ما ينظمه لي الدفء وزخم الحركة وغزارة التجربة . شاعر شاعر . لا راصف كلام . يجسّد لي المعاني وينقلني من عالم التوافه ورخص الابتذال إلى دنى النشوة والجمال وأوطان المحبة والخير وأرض العافية . شاعر جديد مثل الحياة الجديدة فماذا أنا ملاقٍ من هذه الصفات في شعر صديقي أحمد الصافي وديوان « شرره » وملحق « شظاياه » ؟

« شرر » ثامن ديوان للصافي بل « ثامن مرحلة من مراحله الشعرية » ، كما جاء في المقدمة ، يقطعها الصافي وحده بلا رفيق في طريق جديدة — كما يدّعي — شقها وعبّدها بنفسه في أرض بكر .. ومجاهل موحشة .. لم تطرقها رجل شاعر .. ولم تسلكها قدم ناثر .. ولم يهتد اليها فكر باحث او عابر .. وو .. وبقي عليه ان يزعم انها لم تخطر على فكر بشر ، هكذا يقول الصافي في مقدمته فمالنا وللاقوال ؟ لنرقب أفعاله !

في ديوان «شرر» قصائد جيدة وقصائد رديئة ، ولكن الرديء يغلب على الجيد . اولى جيداته قصيدة بعنوان « الشعر الصادق » يقول فيها الصافي :

ما كل من يصدق في شعره اهل لأن يخلد طيّ الدهور
ان زال «فرق» الشعر في صدقه ففرقه في درجات الشعور
ما الفضل في صدق بليد الشعور وإن يكن خاض جميع البحور
ما كل ما يقذف بحر به يليق ان يوضع فوق النحور
كم من بليد شعره صادق وصدقه اتفه كل الأمور
كم ناظم بعضُ الذي قاله شعر وباقيه «دعاوى غرور»

اجل وربي وأقوال زور كذلك . لنكمل القصيدة :

وناظم يزعج آذاننا كأنما يقذفها بالصخور
يجول في كل النوادي به يسمعها وإن شكت بالفتور
كأنما الأسماع وقف له بكثرة القول عليها يجور
يعيد ما قال ولا ينتهي حتى لمن يجبهه بالنفور
كالبائع الجوّال في كفه بضاعة في كل ناد تدور

ولماذا ليس كأحمد الصافي نفسه ؟!

هذه واحدة . وأما جيّداته الاخريات فهي « الكوخ والقصر » ص٧٢ و « هياج البحر » ص١٠٥ و « حسناء تسوق سيارة حسناء » ص١١٤ و « تصحيح قبلة » ص١٢٥ و « الساعة المزاحمة » ص١٣٩ . خمس قصائد تمثل حقيقة الصافي وترسم شخصيته وتحدد طريقته : سامية باغراضها ، دفاقة بمعانيها ، ولكن .. ولكن ينقصها هذا الزخم الشعري ، والوقدة اللاهبة ، والنسج القوي المتلاحم ، الذي يكتفي باللمحة ، ويقف عند الاشارة ، وتكون قيمته الذهنية في غنى العاطفة الموحية ، والرمز المكتمن في الاتساق أو الزاهر باللون ، لا في تقرير الفكرة تقريراً مباشراً بالاعراب عنها إعراباً منطقياً واضحاً . فالافكار والمواضيع وحدها لا تعمل من غير الشاعر شاعراً . فالموضوع وسيلة للقصيدة لا غاية لها بينما هو غاية للنثر لا وسيلة . والافكار يجب أن تندمج في التعبير الفني اندماجاً تاماً ، وأن تخضع لقواعد الجمال الشعري — كما يقول أرنولد — وإلا فما الفرق بين الشاعر والناثر ؟ والأدب وعجن الكلام ؟

يقول دنتون « الفرق بين الأدب كله وعجن الكلام هو انه بينما الأدب حي فعجن الكلام بلا حياة » هذه هي علة الصافي النجفي ، فهو يقبل كل ما تورده عليه قريحته ويناجيه به طبعه ويبعثه فكره من غير أن يخضعها لمقياس الفن أو يعمل فيها التثقيف والتشطيب ليبرزها منقحة مصفاة ، خالية من كل دنس ، فتأتي قصائده نثرية في اسلوبها وفي روحها ، ضئيلة الحاسة الفنية ، ذات صياغة فنية طويلة مجرجرة لا روح فيها ولا انفعال ولا اصالة أو نسمة حياة ، بل خواطر تفكيرية مألوفة وتأملات ذاتية ، حائمة على السطوح ، إن كانت تدل على شيء فعلى الجمود والزيف النفسي والخمود الذهني .

الخلاصة ان الصافي شاعر يعيش في غرفة ضيقة وقواعد قديمة بالية . لا يحيا في العصر بل يحتضر على هامشه، يستوحي أساليب الأقدمين ويخبط في عقده النفسية :

من الاجتماع بنفسي عُقد ... من اللؤم مضطرماً والحسد
وإما خلوت بنفسي ارتميت ... وكلفت نفسي بحل العقد
فيعجزني الحل أو قطعها ... فلي عقد حبلها من مسد
ومن ذنب الذنب ماذا أحل ... فنفسي قد كونت من عقد
وكم عقدة ساقها الوهم لي ... فان رمت حلًا لها تنعقد
كأني نفاثة في العقـــد ... أضاعت حجاها ولم تستفد

هذا هو احمد الصافي النجفي على حقيقته في هذه المرحلة من مراحل حياته الشعرية على الأقل . إن كان يساغ للناقـــد ان يدرسه فمن هذه الوجهة فقط – الوجهة النفسية – أما من وجهة الأدب والفن المحض فالناقد الفني لا يجب ان يعنى مطلقاً بشعر من نوع شعر الصافي . إنه شعر يؤخر تقدمنا ولا يزيد ثروتنا الأدبية ذرة واحدة . وعسى أن نلتقي يوماً مع نفس الصافي وشعره من خلال دواوينه الثانية لا ديوان «شرر» فقط لتكون الدراسة أكمل والنقد أقوم وأتم .

احمد ابو سعد
من اسرة الجبل الملهم

١ــ الشعر في العصر الايوبي للدكتور جودة الركابي
٢ــ دار الطراز لابن سناء الملك نشر الدكتور جودة الركابي

نشر المستشرق الانكليزي غيليوم Guillaumme في الجزء الرابع عشر من مجلة « مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية لجامعة لندن » (١٩٥٢) Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London 1952 تحليـــلاً موجزاً لكتـابي الدكتور جودة الركابي : الأول « الشعر في العصر الايوبي وممثلوه الأساسيون » (باللغة الفرنسية) ، والثاني « دار الطراز في عمل الموشحات » (باللغة العربية). قال ماترجمته:

١ – الشعر في العصر الايوبي ، المطبعـة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٤٩

كتب مقدمة هذا الكتاب الاستاذ بلاشير واصفاً الشعر الايوبي بانه آخر صرخة قبل الموت . وقد قام الدكتور الركابي مؤلف الكتاب بتحريات عميقة تتعلق بشعراء اربعة من شعراء العصر الايوبي هم ابن سناء الملك وابن النبيـــه وابن مطروح وبهاء الدين زهير ، وقد اختارهم كأحسن من يمثل شعراء ذلك العصر وألقى أضواءً جديدة على حياتهم وآثارهم. ويقوم المؤلف بعد مقدمة ناجحة عن تاريخ العصر فيضع كل شاعر في وسطه الاجتماعي ويأتي بنماذج من شعره ليثبت ما جـاء بالنص العربي لهذه الشواهد في نهاية الكتاب .

وقد خصص المؤلف القسم الثاني من الكتاب لدراسة واضحة ودقيقة عن مكانة هؤلاء الشعراء في الشعر العربي . وإنـه لعمل مفيد يمكن ان يكون نموذجاً لدراسات قادمة لعصور اخرى . ونلاحظ ان هؤلاء الشعراء، على الرغم من هجرهم قيود القصيدة الجاهلية ، قد حافظوا على تمسكهم بروح هذه القصيدة ،وهذا ما جعلهم يستعملون بعض التعابير المتكلفة كما نرى ان «كليشهات» العصور القديمة تعود على ألسنتهم بشكل ممل. وأنهم لم يستطيعوا التخلي عن الماضي الا عندما جاء ابن سناء الملك بالموشح على غرار الاندلسيين ثم قام بوضع قواعده وذكر أسس نظمه .

ومنذ القديم نبّه المستشرق «هارتمان» الأذهان الى هـــذا النمط من الشعر وبيّن علاقاته الممكنة بأشعار الاوربيين في القرون الوسطى ، الا انه منذ ذلك الحين اخذ اهتمام الناس بهذا النوع من الشعر يزداد يوماً بعد يوم .

هذا والفصلان اللذان خصصها المؤلف للموشح والدوبيت يوضحان كثيراً من الأمور التي كانت في الماضي غامضـة . إلا أن القسم الذي خصصه المؤلف للصنعة الشعرية لا يوجد فيـه ما يدعو الى الاهتمام ، على أن هناك بعض المقاطع التي تدل على عاطفة حقيقية انتزعت من قلب الشعر . وهناك بعض الأبيـات لأبن مطروح يمكن مقارنتهـا باشعار بن جونسون Ben Jonson إذا ما غيرنا بعض الألفاظ .

٢– دار الطراز في عمل الموشحات، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، ١٩٤٩ .

يبين الناشر الدكتور الركابي ان (دار الطراز) ليس ديوان ابن سناء الملك ، كما يزعم ابن خلكان، بل هو مجموعة موشحات والديوان لا يزال مخطوطاً . ويشير ابن سناء الملك في مقدمـ الكتاب إلى قواعد نظم الموشح ويعترف بانه مدين لمن سبقه من الأندلسيين في اختراع هذا الفن ويذكر بعض موشحاتهم

إن إقدام الدكتور الركابي على نشر هذا الكتاب عمـــل جليل له فائدة كبرى وقيمة عظيمة لمن يريد أن يتصدى لهذ المضمار من الأدب العربي . وعلينا ان نهنىء الدكتور الركاب لقيامه بهذه المهمة على أحسن ما يجب . وانني أؤكد ان القر سيتلقون هذا الكتاب بابتهاج ولذة .

لندن — **غيليوم**